الكاتب المصرى

ربيع الثانى ١٣٦٦ — مارس ١٩٤٧
السنة الثانية — مجلد ٥ — عدد ١٨

فرانز كفكا

مرَّ بهذا العالم مرًّا سريعاً ، فلم يعش فيه إلا أربعين عاماً . أنفق جزءاً غير قليل منها فى الطفولة والصبا ، متأثراً بما حوله غير مؤثر فيه ، متلقياً ما ينحدر إليه من أبويه اللذين منحاه الحياة ، وما يقدم إليه أبواه أثناء التربية من ألوان التصور للأشياء ، والتقدير لها ، والحكم عليها ، والوقوف أمامها ، قابلاً حيناً ورافضاً حيناً آخر . متلقياً كذلك ما تقدم إليه بيئته الخاصة التى تحيط به وبأسرته فى مدينة براج ، فى أواخر القرن الماضى ، من ألوان الحضارة وفنون الحياة التى كانت الطبقة الوسطى تحياها فى ذلك الوقت .

ثم أنفق بعض هذا الأمد طالباً فى المدارس الثانوية ثم فى الجامعة ، مندفعاً بميله الأول إلى العلم ، ثم متحولا عن العلم التجريبى إلى الفقه والقانون ، حتى إذا أتم دراسته التمس عملا يكسب منه القوت ، ليظفر بشئ من الحياة المستقلة ، فوجد هذا العمل فى شركة من شركات التأمين . وهو فى أثناء ذلك يتكلف أسفاراً قصيرة فى وطنه وفى ألمانيا وسويسرا ، وإيطاليا وفرنسا . ثم لا يكاد القرن العشرين يتقدم قليلا ، حتى يقضى عليه الموت سنة ١٩٢٤ ، وقد ولد سنة ١٨٨٣ .

فحياته العاملة الظاهرة كما ترى قصيرة جدًّا ، بسيطة جدًّا ، ليس فيها عوج ولا التواء ، وليس فيها تكلف ولا تعقيد . ومع ذلك فلم يعرف التاريخ الأدبى كثيراً من الأدباء تعقدت حياتهم النفسية ، والتوت بهم طرق الاحساس والشعور والتفكير ، كهذا الأديب والذين يدرسون حياته النفسية . هذه فى آثاره الكثيرة ، يردون تعقيدها إلى طائفة من المؤثرات ، قريبة فى نفسها ، ولكنها

بعيدة أشد البعد فيما نشأ عنها من ضروب الشعور والتفكير . فقد كان أديبنا من أسرة يهودية تعمل فى التجارة ، متأثرة أشد التأثر ، وأيسره فى الوقت نفسه، بالتقاليد اليهودية المتوارثة ، فى شرق أوربا ووسطها ؛ فهى محافظة أشد المحافظة على هذه التقاليد السطحية التى يحافظ عليها اليهود . وهى فى الوقت نفسه متهاونة أشد التهاون فى حقائق الدين ودقائقه . ترى أنها قد أدت الواجب على وجهه إذا اختلفت إلى المعبد فى أوقات معلومة ، فسمعت ما يسمع الناس ، وقالت ما يقولون ، وأتت من الحركات والأعمال ما يأتون ، دون أن يتجاوز شئ من هذا كله أطراف اللسان وأعضاء الجسم ، إلى دخائل النفوس وأعماق القلوب فدينها ظاهر من الأمر ، كدين غيرها من عامة النـاس ، صور أشكال لا تمس الضمير ، ولا تؤثر فى السيرة اليومية ، ولا توجه الحياة الداخلية والخارجية إلى وجه دون وجه ، وإنما الحياة الداخلية والخارجية موجهتان دائماً بما وجه حياة الناس ، على أختلاف أديانهم وعقائدهم ، من هـذه الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، التى تدفع الناس إلى العناية بمنافعهم القريبة العاجلة ، أكثر من العناية بحقائق الدين ودقائقه ، وبتعمق الحياة وما يكون فيها من الأحداث ، وما يمكن أن يكون لها من الأغراض العليا والغايات البعيدة . ولذلك لم يلبث أديبنا أن ضاق بهذه الحياة الدينية الظاهرة المتكلفة ، التى تقوم على النفاق أكثر مما تقوم على الايمان . فجحد دين الأسرة والشعب اليهودى أولا ، ثم جحد الدين نفسه بحقائقه ودقائقه بعد ذلك ، وأقام حائراً لا يستطيع أن يعود إلى دين آبائه ؛ لأن عقله لا يطمئن إلى هذا الدين ، ولا يستطيع أن يستغنى عن حياة دينية صادقة تعمر القلب وتملأ الضمير ثقة واطمئناناً . فهو ينكر من جهة أشد الانكار ، ويسعى من جهة أخرى أشد السعى ، إلى أن يجد ما يؤمن به قلبه ، وترتاح نفسه إليه .

وهـذه المحنة القاسية التى امتحن بها فى إيمانه ، قد نشأت عنها محنة أخرى ليست أقل منها قسوة وعنفاً ، وليست أيسر منها تأثيراً فى حياته الداخلية ؛ فقد امتحن أديبنا فى الصلة بينه وبين أبيه . أنكر سيرة أبيه فى الدين ؛ لأنه لم ير فيها صدقاً ولا إخلاصاً . ثم أنكر سيرة أبيه فى الأسرة ؛ لأنه رآها تقوم على التسلط والاستطالة وعلى القوة والقهر أكثر مما تقوم على الرحمة والحب وعلى البر والعطف والحنان . ثم أنكر سيرة أبيه فى تدبير منافعه التجارية

المختلفة ؛ لأنه رآها تقوم على الحرص والأثرة وانتهاز الفرص ، أكثر مما تقوم على القصد والعدل والانصاف . فنظر إلى أبيه على أنه طاغية مخيف ، ولم يستطع أن ينظر إليه إلا على هذا النحو ، وأقام الصلة بينه وبين أبيه على الاشفاق والخوف ، ثم على المصانعة والمداراة ، ولم يستطع أن يقيمها على شئ آخر من هذا التعاطف الرقيق الرفيق الذى يكون بين الأبناء والآباء .

فهو إذن منكر للدين وسلطانه ، وهو فى الوقت نفسه ضيق بالأبوة وسلطانها . وهو لا يلبث أن يوحد بين هذين النوعين اللذين ينكرهما من السلطان ، سلطان الدين وسلطان الأبوة ، فيقف منهما موقفاً قوامه القلق والفزع والهول . وهو يشقى بهذا الموقف حياته كلها ، قد حاول ما وسعته المحاولة ، أن يخلص من الشك إلى الثقة ، ومن الخوف إلى الأمن ، فلم يجد إلى ذلك سبيلا .

ثم تنشأ من محنته فى الدين وفى الصلة بينه وبين أسرته ، محنة أخرى ليست أقل منهما قسوة ولا تعقيداً ، وهى المحنة التى تمس حقه فى أن يحيا حياة الآباء ، فيتخذ الزوج و يمنح الوجود للولد ، كما اتخذ أبوه الزوج وكما منحه ومنح إخوته الوجود . فهو يشعر بأنه مدين لأبيه بوجوده ، لا يشك فى ذلك ، ولا يشك فى أن الدين يجب أن يؤدى ، ولا يشك فى أن الوسيلة الوحيدة إلى أن يؤدى الابن ما عليه لأبيه من الدين إنما أن يمنح الوجود الذى تلقاه من أبيه لأبناء يتلقونه منه و يمنحونه بعد ذلك لأبنائهم . فاذا اتخذ الزوج ورزق الولد ، فليس عليه لأبيه دين . هو يؤمن بهذا كله ، ولكنه فى الوقت نفسه يقف من هذه القضية موقفاً يشبه موقف أبى العلاء فى البيت المشهور :

هذا جناه أبى علىّ وما جنيتُ على أحد

ذلك أنه يرى الحياة التى تلقاها من أبيه شرًّا لا خيراً ، لأنها لم تمنحه رضا القلب ، ولا هدوء النفس ، ولا راحة الضمير ، ولا هذه الثقة الباسمة التى تنشأ عنها كل هذه الخصال . هو مدين لأبيه بالوجود ، ما فى ذلك شك . وليس أحب إليه من أن يؤدى ما عليه من الدين ، ولكن بشرط ألا يكون أداء الدين مصدراً للشر ، ولا سبيلا إلى الأذى ، وبشرط ألا يجنى على أبنائه ، ما جنى عليه أبوه من هذا القلق المتصل ، والخوف الملح ، واليأس المقيم ، و إلى جانب هذه المحن الثلاث ، فى الدين والأبوة والزواج ، تضاف محنة أخرى

لعلها أن تكون هى التى أسبغت لونها القاتم على محنه الأخرى كلها ، وهى محنة المرض ، المرض الذى لا يظهر فجاءة ولا يثقل على المريض ثقلا طويلا ، وإنما يداوره ويناوره ، ويسعى إليه سعياً خفيًّا بطيئاً مثلكئا ، يدنو منه ليتأى عنه ، ويلم به ليفارقه ، ويقفه من الحياة موقفاً غريباً لا هو باليأس الخالص ولا هو بالأمل الخالص ، وإنما هو شئ بين ذلك ، يملأ القلب حسرة ولوعة ، ويملأ النفس شقاء وعناء ؛ حتى إذا استبان أنه قد نهك فريسته وكلفها من الجهد أقصاه ولم يبق فيها قدرة على المقاومة ، أنشب فيها أظفاره ، وصب عليها آلاماً ثقالا وأهوالا طوالا ، ثم قضى عليها الموت فى ساعة من ساعات الليل أو من ساعات النهار .

فأنت ترى أن أديبنا عليل قد ألحت عليه العلة ، وأن علته معقدة أشد التعقيد ، بعضها يتصل بالدين . وقد عجز أطباء اللاهوت عن علاجه ؛ فهو قد قرأ التوراة وتعمق دراسة التلمود ، ودرس المسيحية ودرس فلسفة الفلاسفة المؤمنين والملحدين ، فلم يجد لعلته الدينية هذه طباً ولا شفاء . وبعضها يتصل بالوراثة والصلة بين الابن وأبويه ، فهو إلى علم النفس التحليلى أقرب منه إلى أى شئ آخر . وقد عجز علم النفس التحليلى عن علاجه ، فلم يستطع أحد ولم يستطع شئ أن يصلح رأيه فى أبيه ، أو يصلح العلاقة بينه وبين أبيه ، وإنما ظل طول حياته واقفاً من أبيه موقف الطفل الخائف المروع الذى يرى تفوق أبيه وتسلطه ، ويحاول أن يخلص من سلطانه فلا يستطيع ، ويحاول أن يحبه وأن يظفر منه بالحب فلا يستطيع . وبعضها يتصل برأيه فى الحياة ، وموقفه منها ، ورغبته فى أن يحياها كما تعود الناس أن يحيوها ، وخوفه مع ذلك من العجز عن احتمال أثقالها ، وخوفه بنوع خاص من أن يحمِّل هذه الأثقال قوماً آخرين ، أبرياء لم يجنوا ما يستحقون من أجله احتمال الأثقال ، وهم الزوج والولد . وبعض علته جسمى يتصل بالفسيولوجيا ، وقد عجز الأطباء عن علاجه ؛ فمازال السل يداوره ويناوئه حتى قضى عليه آخر الأمر . فاذا قدرنا هذه المحن كلها ، وقدرنا أنها لم تصبّ على رجل عادى ، وإنما صُبّت على رجل ممتاز له من القلوب أذكاها ، ومن العقول أصفاها ، ومن الأذواق أرقها ، ومن المشاعر أدقها ، ومن الحس أشده إرهافاً ، وله بعد ذلك إرادة حازمة صارمة ، وقدرة مدهشة على الملاحظة ، وعلى ملاحظة نفسه أكثر من ملاحظة غيره من الناس ، وبراعة

خارقة للعادة فى أن يجعل نفسه موضوعاً للدرس والبحث والتحليل ، وأن يكون هو الدارس الباحث المحلل ، وأن يسجل ما ينتهى إليه درسه وبحثه وتحليله ، فى آثار مكتوبة طوال وقصار — أقول إذا قدرنا هذا كله ، لم نر غريباً أن يكون أديبنا هذا بهذه المنزلة التى شغلت الناس ، ويظهر أنها ستشغلهم وقتاً طويلا .

وربما كان أخص ما يمتاز به فرانز كفكا أشد الامتياز ، أنه كان أصدق الناس لهجة ، وأشدهم إخلاصاً ، وأبغضهم للتكلف ، وأبعدهم عن التصنع ، وأعظمهم حظا من التواضع الذى يأتى من معرفة الانسان قدر نفسه بعد الدرس المتصل والاستقصاء العميق . وهو من أجل ذلك كان يكتب لنفسه ؛ أكثر مما كان يكتب للناس ؛ فقد كان من أشد الناس زهداً فى نشر آثاره . وأعظمهم إخفاءً لها وضنّا لا لأنه كان يكبرها أو يغالى بها ، بل لأنه كان يزدريها كما كان يزدرى نفسه . وقد نشر قليل من آثاره أثناء حياته فى المجلات ، ولم ينشر فى أكثر الاحيان إلا على كره منه . كان صديقه ماكس برود يختطف هذه الآثار اختطافاً ، ويدفعه إلى نشرها دفعاً . فلما أدركه الموت وقرئت وصيته ، تبين أنه قد اختار صديقه هذا ، (ماكس برود) وصيّا ، وأنه يطلب إليه أن يحرق آثاره كلها . وألا ينشر منها فى الناس شيئاً . وقد وقف الوصى من هذه الوصية موقف الحيرة التى لم تتصل ، فشك غير طويل ثم خالف عن أمر صديقه ، وأخذ فى نشر آثاره ملتمساً لذلك ما شاء من العلل والمعاذير . وقد مات فرانز كفكا سنة ١٩٢٤ ، ولم تمض على وفاته أعوام حتى كانت آثاره بعيدة الانتشار فى ألمانيا ، بل فى أوربا الوسطى كلها ، ثم تجاوزت حدود أوربا الوسطى إلى أوربا الغربية ، فتلقاها الفرنسيون لقاء غريباً .

وربما كان من طرائف الأشياء ، أن آثار فرانز كفكا ، كانت تستقبل أحسن استقبال فى غرب أوربا ؛ وينكل بها أبشع تنكيل فى أوربا الوسطى ؛ فكان الفرنسيون والانجليز يترجمونها ويفسرونها ، على حين كان الألمانيون الهتلريون يحرقونها جهرة فى الميادين .

وقد يكون من الخير أن نلاحظ ، قبل أن نتحدث عن آثار فرانز كفكا ، أن ظروف الحياة الأوربية كانت ملائمة كل الملاءمة لظهور هذه الآثار . فقد بدأ كفكا يشعر ويفكر قبيل الحرب العالمية الأولى ، فكان كل شئ من حوله يؤذن بالكارثة ويدفع إلى البؤس واليأس . ثم مضى فى تفكيره وإنتاجه أثناء الحرب العالمية الأولى ، فكان فى تلاحق الكوارث والفواجع من حوله ما يزيد إمعانه

فى البؤس واليأس . ثم لفظ ذات يوم فاذا كل شئ من حوله ينهار : فامبراطورية النمسا والمجر تتفرق أيدى سبا ، والامبراطورية الألمانية العظيمة تلقى السلاح وتركع متلقية شروط المنتصر ، فلا يزيده هذا كله إلا إيغالا فى البؤس واليأس . ثم يمضى فى تفكيره و إنتاجه . وقد تم الصلح ، ولم تلبث الانسانية بعد إمضائه أن استشعرت خيبة الأمل وكذب الظن ، فلم يتحقق العدل الذى قيل إن الحرب أثيرت لتحقيقه ، و إنما عادت الانسانية بعد الحرب ، كما كانت قبل الحرب ، بائسة يائسة ، متخبطة لا تدرى إلى أى وجه تتجه ، ولا فى أى طريق تسير .

حياة خاصة كلها نكر وشر ، وحياة عامة كلها بؤس ويأس ؛ فأى غرابة فى أن يكون الأدب الذى ينتجه فرانز كفكا فى هذه الظروف كلها هو الأدب الأسود بأدق معانى هذه الكلمة وأشدها سواداً وحلوكا . وواضح جداً أن هذا القلب الذكى ذا الحس المرهف والشعور الدقيق ، لم يصور الحياة كما رآها من حوله فحسب ، و إنما صور هذه الحياة ، وصور آثارها القريبة ؛ فكان فى أدبه هذا المظلم ، شئ من التنبؤ المزعج ، بما ستتعرض له الانسانية من الكوارث والأخطار . وكان من أجل هذا بغيضاً إلى الذين كانوا يريدون أن يعيدوا الحرب جذعة ، مثيراً للشوق وحب الاستطلاع عند الذين كانوا يخافون الحرب ويشفقون من أن يدفعوا إليها كارهين . ومن أجل هذا كانت آثار فرانز كفكا فى وقت واحد ، تترجم فى باريس ، وتحرق فى برلين . والآثار الأدبية التى تركها فرانز كفكا كثيرة منوعة ، لم تنشر كلها بعد ، و إنما نشر أكثرها . وأظهر ما تمتاز به من الخصائص أنها تصور القلق الذى يوشك أن يبلغ اليأس ، وتصور الغموض الذى يضطر القارئ إلى حيرة لا تنقضى ، ويدفعه إلى كثير من المذاهب فى فهم هذه الآثار وتأويلها ، وحل ما تشتمل عليه من الألغاز والرموز . فقد كان فرانز كفكا أشد الناس صراحة وأعظمهم إخلاصاً فى حياته اليومية ، وفيما كان ينشأ من الصلات بينه وبين أصدقائه وذوى معرفته ، وفيما كان يسجل لنفسه من الخواطر والمذكرات فى يومياته المتصلة ولكنه بعد هذا كله كان أبعد الناس عن الصراحة وأنآهم عن الوضوح ، فيما كان ينتج من القصص الطوال والقصار .

وليس المهم أن نلتمس العلل المختلفة لهذا الغموض ؛ فالأدب الرمزى

فى نفسه ظاهرة سائغة طبيعية، ليست فى حاجة إلى أن تلتمس لها العلل والمعاذير، وإنما هى أثر من آثار بعض الأمزجة ، ولون من ألوان الفن ، فى كثير من الآداب القديمة والحديثة ، على اختلاف البيئات والعصور . فقل بعد ذلك إن فرانز كفكا قد أمعن فى درس التلمود ، وتعمق ما فى آداب إسرائيل من الأسرار والألغاز ، وتأثر بهذا كله فى فنه ؛ فهذا حق من غير شك ، ولكنه ليس كل شئ، فما أكثر الأدباء الرمزيين الذين يستمدون رمزيتهم من مزاجهم الفنى وحده ، لا من دراسة التلمود ، ولا من تعمق الأسرار والألغاز فى أدب إسرائيل ! .

والغموض فى أدب فرانز كفكا من نوع خاص . فالرجل المثقف حين يقرأ هذا الأثر أو ذاك من آثاره ، لا يشعر بالغموض لأول وهلة ، وإنما يخيل إليه أنه يقرأ شيئاً يسيراً سائغاً قريب الفهم ، لا يتكلف فى تذوقه جهداً ولا عناء . ولكنه لا يلبث أن يحس شيئاً من الغرابة ، أو قل شيئاً من الغربة فى هذا الذى يقرأ ؛ لأنه يرى أشياء مسرفة فى البساطة مألوفة أشد الالف ، ليس من شأنها أن ترتفع إلى حيث تكون أدباً ينتجه الفن الرفيع ، وإنما هى من هذه الأشياء التى يراها الانسان فى كل يوم وفى كل مكان ، وفى الطبقات الساذجة العادية من الناس ؛ فيسأل القارئ نفسه ، أو قل يقنع القارئ نفسه ، بأن الكاتب لم يرد إلى هذه البسائط ، وإنما اتخذها وسائل قريبة لغايات بعيدة . وهنا يدفع القارئ إلى التماس هذه الغايات ، فيذهب فى التماسها كل مذهب ، ويسلك إلى استكشافها كل سبيل . وقد يصل إلى شئ يحسبه الغاية التى قصد إليها الكاتب ، ولكنه لا يكاد يفكر ويروّى ، حتى يشك فيما انتهى إليه ، وحتى يسأل نفسه ألا يمكن أن يكون الكاتب قد أراد إلى غاية أخرى أو إلى غايات أخر ، غير هذه التى انتهى هو إليها ؟ وكذلك تستطيع أن تقول إن قارئ فرانز كفكا، معلق دائماً، يخيل إليه أنه يفهم ما يقرأ، وهو يفهم معانيه القريبة من غير شك، ولكنه يشعر شعوراً قوياً بأن هذا الذى يفهمه ليس هو الذى قصد الكاتب إليه .

وإلى جانب هذا الشعور بالتعليق المتصل يجد القارئ أثناء قراءته حرجاً مرهقاً وضيقاً شديداً لأنه يرى نفسه فى بيئة مهما تكن قريبة فى ظاهر الأمر فهى غريبة فى حقائق الأشياء . وهو من أجل ذلك لا يحس يسراً ؛ ولا سهولة ولا سعة ، وإنما هو يشعر بضيق الصدر وقلق النفس وهذا الجهد العنيف

الذى يفرض على العقل . فقارئ فرانز كفكا فى الدنيا وليس فيها ، هو فى عالم غريب ، لا هو بالواقعى ولا هو بالوهمى ، وإنما هو شئ بين الواقع والوهم يملأ النفس حيرة وشوقاً وسأماً وإلحاحاً فى وقت واحد .

تأخذ فى قراءة القصة فيفجؤك قربها وتدهشك غرابتها ، وأنت لا تكاد تطمئن إلى هذا القرب اليسير المألوف ، ولو قد اطمأننت إليه لتركت القصة وأعرضت عن الكتاب ، ورأيت أنك لست فى حاجة إلى تكلف الجهد لتفهم ما لا يحتاج إلى فهم . وأنت لا تطمئن إلى هذه الغرابة ، ولو قد اطمأننت إليها لتركت القصة وأعرضت عن الكتاب يائسا من القدرة على الفهم ، ضنينا بوقتك وجهدك على إنفاقهما فيما ليس إلى فهمه سبيل . فأنت إذن معلق بين الوضوح الذى يملأ نفسك سأماً ، وبين الغموض الذى يملأ نفسك شوقاً . وما تزال فى هذه الحال المعلقة منذ تبدأ الكتاب أو القصة إلى أن تفرغ منهما .

وأغرب من ذلك أنك حين تفرغ من القراءة ، لا تنتهى إلى ما يحسن الاطمئنان إليه والسكوت عليه ، وإنما أنت معلق بعد الفراغ من القراءة ، كما كنت معلقاً فى أولها وفى وسطها . ذلك لأن الكاتب لا يتم قصته ، وإنما يقتضبها اقتضاباً ، وينتهى بها إلى شئ لا يصلح أن يكون غاية لقصة أو كتاب . ومصدر ذلك فى أكبر الظن أن الكاتب نفسه لا يعرف لنفسه غاية يقف عندها أو أمداً ينتهى إليه ، وإنما هو يمضى بقصته فى طريقها ما وسعه المضى ، حتى إذا أدركه الاعياء أو انتهى إلى بعض الطريق ، وجد أمامه سدا منيعاً لا يستطيع أن يتجاوزه ، فوقف حيث ينتهى به السعى ، واستأنف السير فى طريق أخرى ، وانتهى من هذه الطريق الأخرى إلى مثل ما انتهى إليه فى الطريق الأولى ، فوقف ثم استأنف السير فى طريق ثالثة . وما يزال كذلك يبدأ الطرق ولكنه لا ينتهى منها إلى غاية ؛ لأنه هو فيما بينه وبين نفسه يائس من الغاية أو كاليائس منها .

فخذ مثلا قصصه الثلاث الكبرى ، وهى القضية ، والقصر ، وأمريكا . فستراه يبدأ قصته الأولى بدءاً قريباً كل القرب ، غريباً كل الغرابة ، فيفرض عليك أن تصحبه فى هذه الطريق التى يريد أن يمضى فيها : فهذا رجل لم تتقدم به السن ، ولكنه قد جاوز الشباب شيئاً ، يفيق من نومه ذات صباح ، وينتظر أن تحمل إليه الخادم طعام الافطار . ولكن الخادم لا تحمل إليه شيئاً ، بل لا تدخل

عليه ، وإنما يدخل عليه رجلان يزعمان له أنهما يمثلان الشرطة ، وأنهما قد أقبلا للقبض عليه . وهما يدعوانه فى شئ من العنف إلى أن ينهض من سريره ويدخل فى ثيابه ، ويلحق بهما فى غرفة مجاورة ليبدأ معه التحقيق . وهو دهش لهذا الحادث منكر له ، ضيق بهذين الشرطيين ، ولكنه مع ذلك مضطر إلى أن يطيع . فاذا لحق بالشرطيين فى الغرفة المجاورة وجدهما قد أكلا طعامه غير حافلين به ولا آبهين له . ثم تُلقى عليه أسئلة سخيفة لا خطر لها ، ثم ترد إليه حريته ويقال له : إنه يستطيع أن يذهب إلى حيث يشاء ، وأن يمارس عمله فى المصرف الذى يعمل فيه ، ولكن عليه أن يعلم أنه متهم ، وأنه سيدعى ذات يوم للمثول بين يدى القضاة ليسألوه عن التهمة الموجهة إليه . والشرطيان ينصرفان عنه ، ويثوب هو إلى نفسه ، حائراً أول الأمر ، ثم ساخطاً ، ثم منكراً لهذا التصرف ، ولكنه قلق يريد أن يتبين جلية هذه القصة . وهو يسأل نفسه فيطيل السؤال دون أن يظفر بجواب ، وهو يقبل على عمله كما تعود أن يفعل ، ولكن قلقاً قد استقر فى نفسه ، إن أمكن أن يستقر القلق فى النفوس . والشئ الذى لا شك فيه أنه يسعى قليلا قليلا إلى الثقة بأنه متهم ، و بأن من الحق عليه ومن الحق له أن يدافع عن نفسه . وفى ذات يوم يدعى إلى التليفون ، فيقال له : إن عليه أن يحضر إلى المحكمة يوم كذا ، ويدل على مكان هذه المحكمة ، وهو مكان غريب لا صلة بينه وبين الأماكن المعروفة للمحاكم ودور الشرطة . فاذا كان اليوم الموعود ذهب إلى حيث طُلب إليه أن يذهب ، فرأى عجباً أى عجب : رأى داراً كبيرة قذرة متداعية ، تكثر فيها السلالم والدهاليز ، ولا يهتدى الناس فيها إلى طريقهم إلا بعد جهد شديد ، وهى على ذلك دار مسكونة كغيرها من الدور التى يسكنها الفقراء وأوساط الناس . وما يزال يسأل ويبحث ويستقصى ، حتى يصل إلى غرفة المحكمة ، فيرى جمهوراً من الناس غريباً ، و يرى جماعة من الموظفين قد جلسوا مجلس القضاء ، فيقول لهم ويسمع منهم ، وهو لا يفهم عنهم ، كما أنهم لا يفهمون عنه ، وكما أن النظارة لا يفهمون عنه ولا عن هؤلاء الموظفين . ثم ينصرف وقد استقر فى نفسه أنه متهم و إن لم يعرف طبيعة التهمة . وقد استقر فى نفسه أن من الحق أن يبرئ نفسه أمام القضاة . ولكنه لا يعرف من هؤلاء القضاة ، ولا أين يكونون ، ولا كيف يصل إليهم ؛ لأنه لم ير فى المحكمة إلا جماعة من صغار الموظفين . وهو ينفق

حياته فى محاولات شاقة مرهقة ليعرف تهمته وليدافع عن نفسه ، فيتصل بكبار المحامين وصغارهم ، وبقوم آخرين ليسوا من المحاماة فى شئ . وأولئك وهؤلاء يعدونه بالدفاع عنه وتبرئته إن وجدوا إلى تبرئته سبيلا ، ولكن أحدا منهم لا يبين له طبيعة تهمته ، ولا يدله على مكان القضاة ، ولا يلمح له بطريقة الدفاع عنه ، وإنما هو أمل يتبعه يأس ، ويأس يتبعه أمل ، وحيرة مهلكة للنفوس . وفى ذات مساء يقبل عليه رجلان فى زى رسمى دقيق ، يدعوانه فيستجيب لها ، وهو لا يعرف لماذا أقبلا عليه وإلام يدعوانه . وقد خطر له — لا أدرى لماذا — أنهما مغنيان ، وهو يخرج معهما على كل حال ، فيأخذه كل منهما من إحدى ذراعيه ويمضيان به لا يلويان على شئ . حتى إذا تجاوزا المدينة دفعاه إلى مقطع من مقاطع الأحجار ، ثم طرحاه على الأرض ، ثم أقبلا عليه فذبحاه ، وهو يرى ذلك لا يقاوم ولا يحاول المقاومة ، حتى إذا أحس وقع الخنجر وعرف أنه الموت قال هذه الجملة التى تنتهى بها القصة : « كما يموت الكلب . »

ولم أعرض عليك شيئاً من تفصيل القصة ، وإنما عرضت عليك خلاصتها فى كثير جدا من الايجاز . ولو قد عرضت عليك تفصيلها لتنقلت بك من شئ سخيف إلى شئ سخيف ، ولتنقلت بك فى الوقت نفسه من لغز غامض إلى لغز غامض ومن رمز خفى إلى رمز أشد منه خفاء . وبطل هذه القصة رجل لا نعرف من اسمه إلا حرفاً واحداً هو « الكاف » التى هى الحرف الأول من اسم الكاتب نفسه . فاذا سألت عما أراد إليه الكاتب بقصته هذه الرائعة ، فأكبر الظن أنه إنما أراد إلى أن يصور الانسان الخاطئ الذى لا يشك فى خطيئته ، ولكنه لا يعرف طبيعة هذه الخطيئة ، ولا يعرف كيف دفع إليها ولا كيف تورط فيها ، ولا يعرف كيف يخلص منها ، ولا أمام من يستطيع أن يحاول الدفاع عن نفسه . فهو موقن بأنه خاطئ ، وموقن بأن هناك قاضياً يستطيع أن يعاقب على الخطيئة كما يستطيع أن يبرئ منها . وموقن أن هناك قانوناً ينظم تبعة الخاطئين وما يترتب عليها من عقاب . ولكنه يجهل طبيعة الخطيئة ، ويجهل طبيعة القانون ، ولا يعرف المكان الذى استقر فيه القاضى ، ولا يجد الوسيلة التى توصله إليه . وبعبارة واضحة إنما أراد الكاتب إلى أن يصور الانسان البائس اليائس الذى أجبر على الحياة دون أن يريدها ، وأجبر على الموت دون أن يريده ، وخيل إليه أنه حر بين ذلك ، وانقطعت الصلة الدقيقة الأمينة بينه وبين الإله الذى

يدخله فى الحياة ويخرجه منها ، ويحمِّله ما يحمله من الأوزار والتبعات ، لا يؤامره فى شئ من ذلك ولا يشاوره ، ولا يتيح له حتى أن يلقاه ليستعفيه من التبعة ، ويطلب إليه الصفح والمغفرة .

فكاتبنا إذن لا يجحد الاله ، ولكنه لا يعرفه ولا يعرف السبيل إليه . وهو مشوق أشد الشوق إلى أن يعرفه ويعرف السبيل إليه ، وهو يبذل فى سبيل ذلك الجهد كل الجهد دون أن يظفر بشئ . أترى إلى أننا لسنا بعيدين من حيرة أبى العلاء على اختلاف ما بين الرجلين فى الزمان والمكان والبيئة والثقافة والوراثة !

فاذا تركت هذه القصة ، وعمدت إلى قصة أخرى وهى القصر ، انتهيت إلى نفس النتيجة المؤسة التى انتهيت إليها فى القصة الأولى . ولكن الكاتب يسلك بك إلى اليأس طريقاً أخرى ؛ فبطل هذه القصة الثانية رجل لا نعرف من اسمه إلا حرفاً واحداً هو « الكاف » التى هى الحرف الأول من اسم الكاتب . وهو قد أقبل من مكان مجهول إلى قرية مجهولة ، يشرف عليها قصر ضخم فخم ، وهو يعتقد ويقول للناس إنه قد دعى إلى هذه القرية بأمر من القصر ليشغل فيها منصب المساح . وهو يريد أن يتصل بالموظف المختص فى القصر ليتسلم عمله ، ولكنه لا يجد سبيلا إلى هذا الاتصال . يحاول أن يتصل من طريق التليفون فلا يسمع إلا أصواتاً غامضة لا تدل على شئ . ويحاول أن يتصل بالعمدة ، فلا يجد عنده علماً بهذا المنصب ولا باختياره له . ويحاول أن يسعى إلى القصر فلا يجد سبيلا إليه ، ويحاول أن يتصل بالقصر بوساطة السعاة الذين يسعون بين سادة القصر وبين القرية ، فلا يظفر بشئ . وإنما هو الخداع يتبعه الخداع ، والحيرة تتبعها الحيرة ، والعناء المتصل والشقاء المقيم . وتنتهى القصة إلى غير غاية كما ترى : أنفق صاحبنا حياته فى القرية ، لاهو بالموظف فيتسلم عمله ويعيش مع أهل القرية كما يعيشون ، ولا هو باليائس فيعود من حيث جاء ، وإنما هو معلق بين اليأس والرجاء حتى يدركه الموت .

ولم أعرض عليك تفصيل هذه القصة ، كما أنى لم أعرض عليك تفصيل القصة الأولى ، وإنما اكتفيت هنا كما اكتفيت هناك بهذه الخلاصة اليسيرة التى تصور لك ما أراد إليه الكاتب من تصوير الانسان غريباً معلقاً لا يدرى من أين جاء ، ولا إلى أين يمضى ، وإنما يخيل إليه أنه قد دعى ، وأن له عملا ينبغى أن

يؤديه ، ثم يحال بينه وبين هذا العمل ، وتضيع حياته فى هذه الجهود المجدبة التى لا تغنى عن أصحابها شيئاً . ولو قد استطاع أن يصل إلى القصر ويتحدث إلى من فيه ، لعرف جلية الأمر . ولكن الأسباب متقطعة بينه وبين القصر ، فهو لايستطيع أن يصل إليه . القصر موجود ، مافى ذلك شك . يسكنه أهله وسادته ، ما فى ذلك شك . وهو يدبر أمر القرية والمقيمين فيها والطارئين عليها ، ما فى ذلك شك ، ولكنه يدبر هذا الأمر من بعيد ، ولا يتيح للمقيمين ولا للطارئين أن يتصلوا به أو يراجعوه فى قليل أو كثير . فموقف الكاتب هنا كوقفه هناك ، لاينكر وجود القوة القاهرة المدبرة ، ولكنه لايعرف كيف يتصل بها ، ليتبين جلية أمره ، وليعرف لماذا يجب عليه أن يفعل ، ولماذا يجب عليه أن يترك ، ولماذا يحتمل ما يحتمل من التبعات .

أما القصة الثالثة « أمريكا » فلعلها أن تكون أقل إحراجاً وإرهاقاً من هاتين القصتين ، ولكنها على ذلك لا تخلو من الحرج والضيق والألم ، وهى كذلك لاتنتهى إلى غاية . ويستطيع ماكس برود ، صديق الكاتب ، كما يستطيع غيره من النقاد أن يرى فى هذه القصة شيئاً من أمل ، وأن يظن أنها تدل على أن الكاتب قد ثاب إلى الثقة قبل أن يموت . أما أنا فلا أرى من ذلك شيئاً ، وكل ما فى الأمر أن بطل القصة صبى لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، فأمره رفيق بعض الشئ ، ولكنه منته إلى مثل ما ينتهى إليه أمر غيره من هذا الغموض الذى لا غاية له . واسم هذا الصبى كامل غير منقوص ، وهو كارل روسمان ، وأوله « الكاف » كما ترى ، وقد سخط عليه أبواه ؛ لأن خادماً أغوته فنفياه من أوربا إلى أمريكا . وفى أمريكا تختلف عليه الأحداث ، فمن نعيم ويسر ، إلى بؤس وعسر ، ومن استقامة ووضوح ، إلى التواء وغموض . ثم ينتهى الأمر به بعد كثير من الخطوب إلى أن يقبل عاملا فى فرقة تمثيلية غامضة أشد الغموض ، وقد وضع مع زملائه فى قطار يذهب به إلى غير غاية معروفة .

فأنت ترى أن المذهب هو هو ، لم يتغير : هذا الصبى عبثت به خادم ، وقسا عليه أبواه فنفياه ، وتلقته أحداث غامضة مبهمة متناقضة مضادة لأخلاقه وآماله . ثم هو يوضع آخر الأمر فى قطار يمضى به إلى مكان مجهول ، ثم نحن لانعلم من أمره بعد ذلك شيئاً . أتراه وصل إلى المدينة التى أرسل إليها أم لم يصل ؟ وما عسى أن يكون عرض له من الأحداث أثناء السفر قبل أن ينتهى القطار

إلى غايته إن كان قد انتهى إليها ؟ أتراه قد قبل حقاً فى هذه الفرقة التمثيلية ؛ فقد كان قبوله الأول مبدئيا ، أريد به إلى التجربة لا إلى الاستقرار . كل هذه أمور مجهولة يخيل إلينا الكاتب أن جهلها ناشئ من أنه لم يتم القصة ! ولكن لمَ لمْ يتم القصة ؟ لأنه لم يعرف كيف يتمها . وهو لم يعرف كيف يتمها لأنه لا يعرف كيف تتم قصة الانسان مهما يكن أمره ومهما تكن الظروف التى تحيط به ، ولأنه لا يعرف كيف تتم قصته هو ؛ فهو غير مطمئن إلى أن الموت يختم قصة الانسان ، ولكنه لا يعرف عما يكون بعد الموت شيئاً . وهو غير مطمئن إلى أن هذه الحياة التى نحياها لم يقصد بها إلا إلى هذه الأغراض اليومية التافهة التى نحاول تحقيقها فنحقق أقلها ونعجز عن تحقيق أكثرها . ولكنه لا يعرف عن الأغراض العليا التى يمكن أن تكون الحياة وسيلة إليها شيئاً . محنته الكبرى ومشكلته التى لم يجد لها حلا ، هى أنه لم يستطع أن يستكشف الصلة بين الانسان وبين الاله . وما مصدر العجز عن استكشاف هذه الصلة ؟ إن الانسان يشعر شعورا قويًّا متصلا بوجود الاله ، ويحاول محاولة مستمرة ملحة أن يسمع كلمته ويتلقى أمره ليصدع بهذا الأمر ، فيبرأ من الاثم ، ويخرج من الخطيئة ، ويتخفف من ثقل التهمة التى ألقيت عليه ، فلا يجد إلى ذلك سبيلا . أمصدر ذلك أن الانسان أعجز من أن يرقى إلى الاله ؟ أم مصدر ذلك أن الاله لا يريد ، عن عجز أو عن عمد ، أن يهبط إلى الانسان ؟ أم مصدر ذلك قصور فى الانسان وفى الاله نفسه عن أن يلتقيا ؟ وإذن ففيم التهمة وفيم التبعة وفيم العقاب ؟

هذه هى المشكلات الكبرى التى فرضت على فرانز كفكا منذ امتحن فى إيمانه فجحد دين آبائه ، ولم يستطع أن يهتدى إلى دين غيره يرد إليه هذا الايمان . وهى فيما أعتقد نفس المشكلة التى فرضت على أبى العلاء ، لافرق بين الرجلين إلا هذه القرون العشرة التى أتاحت للمعاصرين ضروباً من العلم وفنوناً من الفلسفة وألواناً من الحرية لم تتح لشيخ المعرة . ومع ذلك فقراءة اللزوميات ، وقراءة الفصول والغايات فى تعمق واستقصاء ، تنتهى بك إلى نفس الموقف الذى تنتهى بك إليه قراءة « القضية » و « القصر » و « أمريكا » . فشيخ المعرة يرى كما يرى فتى مدينة براج أن للعالم خالقاً حكيما ، لا يشك أحد منهما فى ذلك ، ولكنهما لا يفقهان حكمة هذا الخالق ولا يعرفان إلى فقهها سبيلا . وهما من

أجل ذلك يمتنعان عن الشر أو عما يريان أنه الشر ما استطاعا ، ويقبلان على الخير أو على ما يريان أنه الخير ما استطاعا : يكفان أذاهما عن الناس ، ويتجنبان السعى إلى مخالطتهم والاضطراب معهم فيما يضطربون فيه ، ويحرمان على أنفسهما الزواج والنسل ، ويشقيان بقلبين يريدان الايمان ويحاولان الوصول إليه ما أطاقا المحاولة ، وبعقلين يعترفان بما فرض عليهما من الضعف والعجز والقصور . لا يستسلمان إلى اليأس المطلق ، ولكنهما لا يطمئنان إلى الأمل ، وإنما يعيشان فى هذه الدار عيشة معلقة بين الرجاء والقنوط . وهما ينظران إلى العالم من حولها يريدان أن يفهماه ويستكشفا دقائقه وعلله ، فلا يبلغان من ذلك شيئاً . لا يرضيهما موقف العالم المتواضع الذى يستكشف قوانين الكون فيسجلها وينتفع بها وينفع بها الناس ، ولكنهما يريدان أن يعرفا علة هذه القوانين . وبينهما وبين معرفة هذه العلة ، آماد بعيدة لا يستطيعان لها عبوراً وهما من أجل ذلك ينكران العلة الغائية ، ولا يطمئنان إلى ما تعود الناس أن يطمئنوا إليه من أن العالم لم يخلق عبثاً ، ومن أن لكل ما يحدث فى هذا العالم غاية بينة أو غامضة . وليس معنى ذلك أنهما يجحدان حكمة الخالق وما يمكن أن يكون لها من غايات ، ولكن معناه أنهما لا يعرفان هذه الحكمة ، ولا يستطيعان أن يعرفاها ، ولا يقبلان هذه العلل الغائية التى يقبلها الناس ، وإنما يجيزان أشياء كثيرة لا يراها الناس جائزة ولا ممكنة ؛ لأنها تخالف ما تواضعوا عليه من العلل والغايات .

فأبو العلاء يرى أن من الممكن أن يشم الانسان بغير أنفه ، ويرى بغير عينيه ، ويذوق بغير لسانه ، ويمشى على غير قدميه ؛ ذلك كله ممكن لأن الذى خلق الانسان على هذا النحو الذى نعرفه ، وصوره فى هذه الصورة التى نألفها ، يستطيع أن يخلقه على نحو آخر ، ويصوره فى صورة أخرى ، ويمنحه مزاجاً آخر ، ويركب حسه فى حيث يشاء من أعضائه .

وفرانز كفكا يحدثنا فى قصة المسخ عن هذا الفتى الذى أفاق من نومه ذات صباح فلم ير نفسه كما رآها قبل أن ينام ، وإنما رأى صورته قد مسخت إلى حشرة قذرة كأبشع ما تكون الحشرات ، وهو على ذلك محتفظ بشئ من عقله وقلبه ، يفكر ويشعر ويحس ، ويميز بين الخير والشر ، ويقدر اللذة والألم ، ويعرف الرضا والسخط ، وهو يرى مكانه بعد المسخ من أهله ومن الناس ، يقدر

قسوة أبيه ، وحنان أمه ، وعطف أخته ؛ ثم ما يزال يلاحظ ازدياد القسوة فى نفس أبيه ، وفتور الحنان فى قلب أمه ، وتناقص العطف فى قلب أخته ، وقد سعى السأم إليهم جميعاً من هذه الحياة المرة البائسة المخزية ، حتى تتمنى الأخت لو تخلصت الأسرة من هذا العبء الثقيل ، ويقرها أبوها فى صراحة ، ولا تجرؤ الأم على أن تقول نعم أو لا . ويبلغ منه هذا كله حتى ينتهى به إلى موت سخيف حقير . وما الذى يمنع أن يمسخ الانسان إلى حشرة قذرة ، أو إلى حيوان جميل ؟ فالذى ركب العقل فى هذه الصورة الانسانية التى نراها ، يستطيع أن يركب العقل فيما شاء من الصور الجميلة والقبيحة ، الحية وغير الحية . ومن يدرى ! لعل الانسان كما هو أن يكون حشرة بشعة ، بغيضة بالقياس إلى كائنات أخرى فى هذا العالم لا نعرفها ، أو فى عالم آخر لا نعرفه . بل من يدرى ! لعل الانسان بالقياس إلى نفسه العاقلة التى تفكر وتقدر وتحصى وتستقصى ، وتطمح إلى الحق والخير والجمال — لعل الانسان بالقياس إلى نفسه العاقلة هذه أن يكون حشرة بشعة بغيضة ، حين يرضى حاجاته الطبيعية على اختلافها وتباينها . ففى الانسان كثير من طباع الحشرات ، وفيه فى الوقت نفسه شئ آخر يرفعه عن هذه الطبيعة الدنيئة .

ولو قد خلص الانسان لاحدى هاتين الطبيعتين من دون الأخرى لما أحس شقاء ولا بؤساً ، ولما ذاق طعم الخطيئة ، ولما احتاج إلى أن يبرئ نفسه من هذه التهمة التى لا يعرفها أمام هذا القاضى الذى لا يصل إليه . لو خلص الانسان لطبيعة الحشرة وحدها ، لما فرق بين الخير والشر ، ولا بين الاساءة والاحسان . ولو خلص لطبيعة العقل المجرد لما احتاج إلى أن يفرق بين الخير والشر ؛ لأنه فى حاله تلك لا يعرف إلا الخير ، ولا يطمح إلا إليه . فالمحنة كل المحنة هو هذا الازدواج بين طبيعة الحشرة القذرة ، وطبيعة النفس الممتازة العاقلة .

وهنا أيضاً يلتقى فتى براج فرانز كفكا ، وشيخ المعرة أبو العلاء . والنقمة الكبرى عند أبى العلاء هى الحياة ، والنعمة الكبرى ، هى فقدان الحياة . والذى يجعل النقمة نقمة ، هو هذا العقل الذى ركب فى هذه الصورة الانسانية فرأى الشرَّ من قريب ولم يستطع أن يخلص منه ، ولا أن يتخفف من أثقاله ، ولا أن يتصور حياة إنسانية عاقلة تبرأ من التبعات .

فأنت ترى إلى الآن أن أدب فرانز كفكا يقوم ، أو قل يدور حول هذه الأصول الثلاثة : وهى العجز عن الاتصال بالإله من جهة ، والعجز عن فهم الخطيئة والتبرؤ منها مع الثقة بالتورط فيها من جهة ثانية ، والعجز عن فهم العلل الغائية لما يكون فى العالم من الخطوب والأحداث من جهة ثالثة .

وأنت إذا قرأت هذه الآثار الكثيرة التى نشرت لفرانز كفكا على اختلافها فى الطول والقصر ، وتفاوتها فى الوضوح والغموض ، رأيتها كلها تدور حول هذه الأصول . وقد يلح هذا الأثر أو ذاك فى تجلية هذا الأصل أو ذاك ، ولكن مجموعتها تنتهى بك دائماً إلى هذه الخلاصة القاتمة السلبية ، التى تجعل حياة الانسان كلها عجزاً وقصوراً ويأساً أو شيئاً قريباً جداً من اليأس .

ومن أجل هذا وصف أدب فرانز كفكا كما وصف أدب أبى العلاء بأنه أدب قاتم حالك ، يفل العزائم ويثبط الهمم ، ويصد الانسان عن العمل ويرده عن الأمل ، ويدفعه إلى نشاط عقلى عقيم ، يدور حول نفسه أكثر مما يدور حول غيره ، ولا يحفز الناس إلى طمع أو طموح ، وإنما يمسكهم فى لون من الخوف المنكر ، الذى لا أمن معه ولا اطمئنان . ومن أجل هذا حرقت كتب كفكا فى برلين أثناء الحكم الهتلرى . ومن أجل هذا أيضاً كان اليساريون فى فرنسا يبغضون هذه الكتب أشد البغض ، ويودون لو يحال بينها وبين الشباب ، ويعبرون عن هذا كله بهذه الجملة التى كثر حولها الحديث فى فرنسا أثناء الصيف الماضى : « يجب أن يحرق فرانز كفكا » .

وواضح جداً أن هذه العبارة ليست إلا رمزاً ؛ فتحريق الكتب لا يغنى شيئاً ، ويكفى أن تحرق الكتب ليزداد انتشارها ، وإنما المهم هو أن هذا الأدب القاتم مثبط لهمم الشباب ، فلا ينبغى أن يخلى بينه وبين الشباب .

والقارئ العربى يعرف حق المعرفة أن آثار أبى العلاء تعرضت لمثل هذا الشر الذى تعرضت له آثار فرانز كفكا . ولكن الشرق قد يكون أعظم تجربة من الغرب فى بعض الظروف . وقد رأى الشرق العربى أن آثار أبى العلاء على غلوها فى التشاؤم والحلوكة لم تثبط الهمم ، ولم تقل العزائم ، ولم تصرف عن العمل ، ولم ترد عن الأمل ، وإنما منحت النفوس خصباً وفطنة وذكاء ، وحالت بين العقل الانسانى وبين الغرور الذى يطغيه ويدفعه إلى كبرياء عقيمة مهلكة فاضطرته إلى أن يضع نفسه حيث وضعه الله ، فلا يسرف على نفسه

بالبغى والطغيان ، ولا يزعم لنفسه القدرة على فهم كل شئ والنفوذ إلى دقائق ما فى الكون من أسرار .

وسواء رضى الناس أم سخطوا ، فان التشاؤم ظاهرة طبيعية فى حياة العقل والشعور تبدو فى ظروف معينة ملائمة لها ، كالظروف التى أحاطت بفرانز كفكا ، وما زالت تحيط بكثير من كتاب الأدب المظلم فى أوربا وأمريكا ، وكالظروف التى أحاطت بحياة أبى العلاء منذ عشرة قرون . ولعل القراء يلاحظون أن أدب أبى العلاء قد نشأ فى عصر فساد وفتنة واضطراب ، وأنه كان تنبؤاً بكوارث خطيرة لم تلبث أن صبّت على العالم الاسلامى حين أغار عليه الصليبيون ، وأن أدب فرانز كفكا قد نشأ فى عصر فساد وفتنة واضطراب ، وكان تنبؤاً مروعاً بكوارث خطيرة لم تلبث أن صبّت على العالم باعلان الحرب العالمية الثانية .

وقد احتفل العرب منذ أعوام بالعيد الألفى لأبى العلاء . وأكبر الظن أن الأوربيين لن ينتظروا ألف سنة ليحتفلوا بفرانز كفكا ، ولكنهم سينتهزون أقرب الفرص للاحتفال به ، وسيتبينون ، إن لم يكونوا قد أخذوا يتبينون بالفعل أن أدب فرانز كفكا قد كان من الخصب والقوة بحيث أخذ يترك فى الآداب العالمية آثاراً بعيدة عميقة ، ليس إلى محوها من سبيل .

طه حسين